الموضوعات الذاتية في شعر الحسين بن أحمد الجزريّ الحمويّ (ت: ١٠٣٣هـ)

Subjective Themes in the Poetry of Al-Hussein Bin Ahmed Al-Jazari Al-Hamawi **(d. 1033 AH)**

باسم شابك ثجيل

Bassim Shabwk Thajil

basim_shabak@uomustansiriyah.ebu.iq

أ.م.د. أفراح قدوري صالح

Asst. Inst. Dr. Afrah Qaddouri Saleh

قسم اللغة العربية/كلية الآداب/الجامعة المستنصرية

Arabic Dept./College of Arts/Al-Mustansiriyah University

الملخص

يلقي البحث الضوء على شعر الحسين بن أحمد الجزري بصورة عامة، وعلى الموضوعات الذاتية بصورة خاصة، فنلحظ أن الشاعر قد أبدع في اختيار الصورة التي تلاءم موضوعاته، فضلاً عن حسن اختياره للألفاظ المناسبة، ومن الموضوعات الذاتية التي كتب بها الشاعر، المديح بشقيه (التقليدي والديني)، إذ نجده في المديح التقليدي شأنه شأن الشعراء الآخرين لم يخرج عن القالب المألوف، من ذكر الخصال الحميدة، وفضائل الممدوح. أما المديح الديني، فكان قليلا في شعره لم يتجاوز المقطوعتين أو الثلاثة، فقد ذكر في المديح الديني فضائل الله تعالى على الناس، فضلاً عن مديح آل بيت النبي عليهم السلام، أما الوصف فنلحظ أن الشاعر قد أكثر من وصف الطبيعة ومظاهرها، فقد وصف ورد النرجس وجماله، ووصف فصول السنة، وهذا الوصف كان شائعاً في عصره، أما الحنين والشكوى فقد كان أكثر شعره في الحنين إلى أهله وأصدقائه وديارة؛ لأنه كان مغتربا عن دياره، وكان يتمنى العودة إلى دياره، أما في الشكوى فقد أكثر في شعره من الشكوى من الزمان وقساوته، وما يفعله بالغريب.

الكلمات المفتاحية: أبن الجزري، الذاتية، المديح، الوصف، الحنين والشكوى

Abstract

The research sheds light on the poetry of Al-Hussein bin Ahmed Al-Jazari in general, and on subjective topics in particular. We notice that the poet was creative in choosing the image that suits his topics, in addition to his good choice of appropriate words. Among the subjective topics that the poet wrote about is praise in both parts (traditional and religious), as we find it in traditional praise is disgraceful and disgraceful. The rest of the poets did not deviate from the usual template، mentioning the good qualities and virtues of the praised one. As for religious praise، it was few in his poetry and did not exceed two or three stanzas. In religious praise, he mentioned the virtues of God Almighty upon people. In addition to praising the family of the Prophet, peace be upon them. As for description, we notice that the poet did more than describe nature and its manifestations. He described daffodils and their beauty, and described the seasons of the year, and this description was common in his time. As for nostalgia and complaint, most of his poetry was about longing for his family, friends, and home; because he was estranged from his home, and he wished to return to his homeland, but as for complaining, he complained more in his poetry about time and its cruelty, and what it does to strangers.

Keywords: Ibn Al-Jazari, Subjectivity, Praise, Description, Nostalgia and Complain

المقدمة

عرضت في هذا البحث الموضوعات الذاتية في شعر الحسين بن أحمد الجزريّ الحمويّ، وهو الشاعر المشهور الحلبي، وأحد الشعراء المجيدين في عصره جمع في شعره بين الصناعة والرقة. ولد في حلب سنة (٩٩٧هـ_١٥٨٩م)، وتوفي بحماة (١٠٣٣هـ) يعد الجزري واحداً من أبرز شعراء العصر العباسي. إذ تميزت قصائده بالجمال اللغوي والعمق الفكري، والإحساس الشعوري، ونشأ الشاعر في عهد حكم الدولة العثمانية، بحلب وأخذ الأدب عن "براهيم بن أحمد بن الملا، والقاضي ناصر الدين محمد الحلفا، وشغف بتعلم الشعر صغيراً (المحبي، ٢٠٠٦، صفحة ٨١)، وقد ضمت الموضوعات شعره المديح بشقيه (التقليدي، والديني) فالمديح التقليدي، هو ما سار عليه الشعراء جميعهم من ذكر الخصال الحميدة للممدوح وغيرها. أما الديني فتطرق الى مدح الذات الإلهية، فضلاً عن مدائح آل البيت، إذ استعمل البحور التفعيلات الكثيرة التي تستوعب معاني المديح منها (الطويل، والبسيط، والكامل). أما غرض الوصف، فقد أكثر فيه من وصف الطبيعة وجمالها، والغرض الآخر الذي استعمله هو الحنين والشكوى، إذ أكثر الشاعر من شعر الحنين إلى الديار والأصدقاء؛ لأنه كان يعاني من الغربة، وبث أيضاً في شعره الشكوى من الزمان وما تفعله تقلباته من وقع اليم في نفسية الشخص فكيف الحال بالشاعر وما يعانيه من أثر الاغتراب، وخاتمة ضمت نتائج البحث. فالذات لغةً :"حقيقة الشيء وخاصته" (منظور، ١٣٣٠ه، صفحة ١٤٧٨)، أما الذات في الاصطلاح فهي :"فكرة الشخص عن نفسه، وهي نظرة الشخص إلى نفسه باعتباره مصدر العقل" (فهمي، ١٩٧٨م، صفحة ١٠٧)،أي أن الذات الشخصية هي مجموعة من الأفعال التي تتحكم بشخصية الشخص ومنها : الأفعال النفسية، والعصبية....

والذات تصور لنا خلجات النفس لدى الشاعر، وعواطفه إتجاه الأشياء، ويكون هذا التصوير نتيجة تجربة شخصية أحس بها،أو عاشها الشاعر (نصار، ٢٠٠٧، صفحة ٨٠)، وعليه فأن الشعر الذاتي هو "كل ميل إلى اعتبار أحكام الإنسان مبنية على ميوله الفردية وذوقه الخاص" (وهبة، ١٩٨٤، صفحة ١٩٨٤)، أي كل شاعر لديه ذاتية خاصة برسم صورته الشعرية، و"ذات الشاعر هي حقيقة الشاعر، وهويته الشخصية، وما به يكون الشاعر ذاته، أي شاعراً بعينه" (الحميري، ١٩٩٩، صفحة ١٢)، والذات هو طبيعة خاصة وضرورية تجعل من شيء هو نفسه، أو مجموعة الخصائص المكونة له، وهذه الخصائص الإنسانية المتواجدة في الأديب، أو الفنان، وتظهر بوضوح وتعبير متميز من الأثر الأدبي الذي يبدعها (النور، ١٩٧٩، صفحة ١١٦)، وعليه تقسم الموضوعات في شعر الحسين بن أحمد الجزري على موضوعات ذاتية وموضوعات اجتماعية، ونبدأ بالموضوعات الذاتية التي تشمل(المديح، والوصف، والحنين والشكوى).

٢-المديح:

هو نقيض الهجاء، والمديح حسن الثناء، ويعد المديح من أكثر الفنون الشعرية شيوعاً، إذ مال إليه الشعراء،ونظموا فيه الكثير من القصائد، وفن المديح من الفنون الشعرية القديمة التي ظهرت مع بدايات الشعر، ولم يكن مقتصراً على جيل من دون آخر، وأخذ يسجل كل ما يراه ويتحسسه من فضائل وشجاعة، وكرم وخصال حميدة وغيرها (حاقة، ١٩٦٢، صفحة ٦)، والمديح هو فن الثناء، والإكبار، والاحترام، قام بين الفنون الأدبية مقام السجل الشعري ليسجل جوانب من حياتنا التاريخية، فهو يرسم القديم من أعمال الملوك، والوزراء، والقادة، والكثير من الشخصيات المهمة والمؤثرة في المجتمع، والمديح شأنه شأن الأغراض الاخرى لايراعي الصدق والكذب، إذ يميل أحياناً إلى الكذب أكثر من الصدق؛ لغرض

أعلاء شأن الممدوح (الدهان، ١٩٩٢، صفحة ٥)، وبما إن المديح هو الإكبار والثناء فيكون همّ المادحين هو التعبير عن صفات طيبة وحسنة، حتى إن لم يجدوا هذه الصفات فإنهم يخترعونها في تمجيده، وقد يصف الشاعر الأمير أو الوالي، بالكرم والجود والشجاعة، والصدق، والوفاء والمروءة؛ لغرض التكسب،أو التقرب وأحياناً يكون المديح دفاعاً عن دين أو قبيلة، "وهو من أكثر الفنون الأدبية شيوعاً مال إليه معظم الشعراء ونظموا فيه" (محمد، ١٩٩٢، صفحة ٦)، ويعد المديح "من أبرز الفنون الشعرية منذ عصر ما قبل الإسلام" (رشيد، ١٩٨٩م، صفحة ٢١) وعليه يكون همّ الشاعر في المديح إظهار الممدوح بأفضل صورة أمام الناس.

وبما إن المديح من أكثر الفنون الشعرية التي كتب فيها شاعرنا الحسين بن أحمد الجزري الحموي، لذا قُسم المديح لديه على قسمين: مديح تقليدي، ومديح ديني.

أ. المديح التقليدي:

هو المديح المتعارف عليه أو ذكر الخصال الحميدة، وعليه "إن أغلب معاني المديح كانت مستمدة من بيئة العرب، ومجتمعهم الذي يعتمد على الفروسية فكان الشعراء يمدحون بالجود، والعزة، والشجاعة، والآباء، والفتك، وإكرام الضيف" (محمد، ١٩٩٢، صفحة ٧).

وهذا المديح كان يشمل مديح الأمراء والخلفاء، والولاة والقادة،ورؤساء القبائل، ويكون الغرض منه هو للتقرب من الممدوح، أو للتكسب، أو لطلب المنصب، وهذا النوع من المديح شاع كثيراً عند الشعراء منذ العصر الجاهلي إلى وقتنا هذا، وقد غلب غرض المديح على أغلب الأغراض الشعرية في شعر الحسين بن أحمد الجزري الحموي ولاسيّما مديح أمراء بني سيفا، ومن ذلك قوله مادحاً الأمير سليمان بن الأمير علي (المحبي، ٢٠٠٦، صفحة ٢١٣) أحد أمراء بني سيفا الشهير بإبن سيفا (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٨): [الكامل]

لا يعرفــون الــذِلَ إلا في الهــوى ... والحــبُ لَ أعــزة كرمــاءِ
إن الــذليلَ معــذبٌ بحياتــهِ ... لا ميــتٌ إلا ميــتَ الأحيــاءِ
أعني بنـي سـيفا وحسبكَ أن تقـل ... فـيما ينوبـك يـا بنـي سـيفاءِ
لي منهم السيف الصقيل المنتخي ... في النائبـات لـشدتي ورخـائي
ثقتـي سـليمان الزمـان المرتقـي ... شرقُ المعـالي أشرقُ الأمـراءِ
ذو اليـأس تقلـق يـذبلا سـطواته ... وتـرى الـسكون أحـاط بالـدأماء
أخـو المكـارم والمـراحم في غنـى ... بجـوده الـدنيا عـن الأنـواءِ

إذ امتدح الشاعر بني سيفا، وهم قبيلة الأمير وقومه، وكانت قوتهم لا تضاهيها قوة، لإن بني سيفا هم ذو سيوف قوية تخرج من غمدها عند الحرب، وتشتد هذه السيوف إذا طلب الأمير منها ذلك، وترخى إذا طلب، وعندما قال: (ثقتي سليمان الزمان)، أي أنه و بني سيفا كلهم لديهم الثقة بالأمير سليمان؛لأنه ذو رفعة ومنزلة عالية، وهو أفضل الأمراء في الحكم، والدراية، وأن الأمير إذا دخل الحرب تقلق، وترتعش منه الجبال لسطواته، أما البحار فينتابها السكون والهدوء، ووصف الشاعر كرم الأمير وتراحمه مع الناس، وإن هذه الألفاظ التي استعملها الشاعر جميعها في مديح الأمير، هي من ضمن المديح التقليدي للتقرب من الأمير، أو لطلب منصب، أو التودد من الأمير، فهو عندما وصف الأمير بالشجاعة والكرم؛ لغرض التقرب منه، وكسب عطاياه (محمد، ١٩٩٢، الصفحات ٤٤-٤٥).

إذ يقول مادحاً الأمير حسين باشا جانبولاذ (المحبي، ٢٠٠٦، صفحة ٤٥)، وهو والي حلب، وهي أول قصيدة قالها في الشعر (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٣) [الطويل]

إلى الماجد الباشا حسين الذي بهِ غلبتُ زماني بعدما كان غالبي
مهاب له يومَ الجلادِ مواقفُ تخر لديها شامخات الاهاضبِ
زكى مباني الأصل والفرع والعلا رفيع عماد البيت عند التناسب

إذ كان الشعراء كثيراً ما يوضفون المظاهر الطبيعية لرسم صورة عن الممدوح تشد انتباه الممدوح، والقارئ على حدٍ سواء (إبراهيم، ٢٠١٢م، صفحة ٣٣٠)، ولهذا كانت صلة الشعراء بالوجهاء والأشراف، والأمراء والوزراء والقادة أشد من صلتهم بالملوك والخلفاء؛ لأنه لم يكن من الميسور دائماً أن يحظوا جميعاً بلقاء الملوك، لذلك قرر الشعراء مديح الأمراء، والقادة؛ لأنهم ظنوا بهم المنقذ من الغرق، والمغني من الفقر، فمدحوهم كما يمدحون الخلفاء (الدهان، ١٩٩٢، صفحة ٤٤). فقد رسم الشاعر صورة مدحية رائعة عبّر فيها عن شجاعة الأمير وكرمه، وحسن نسبه، إذ إنَّه ذو نسب رفيع بين الناس.

إذ مدح الأمير قائلاً : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٢٠) [البسيط]

طرفٌ بكى وفؤادٌ آنّ من وصبِ والحلُ بعدك مبني على النُصبِ
يامن تباعدَ عن عيني ومسكنهُ قلبي الذي عن هواهُ غير منقلبِ

للغة دور كبير في رسم الصورة الشعرية بتفاصيلها كافة، لهذا أختار الشاعر ألفاظه لرسم صورة عن حالته وهو بعيد عن الأمير، ويريد التقرب إليهِ، فالبعد قد جعل جفون العين تبكي، و(النصب) تعني التعب، فالوجع والتعب قد أصاب جميع الجسم جميعه، وعلى الرغم من بعد الأمير عن العين؛ إلا أنه ساكن في القلب الذي عن حبه لا ينقلب.

وقال يمدح المولى عبد الكريم أفندي قاضي حلب (المحبي، ٢٠٠٦، صفحة ٤٧٤) (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٢٣): [البسيط]

وخصكَ اللهُ بالعدلِ الذي اعتدلتَ منهُ الطبايع واعتلت به النوبُ
والحلم والعلم في حكم وفي حكم يمحى به الشك أو تجلى بها الريبُ

إذ مدح الشاعر بالعدل الذي تميز به القاضي، وإنّ الله سبحانه وتعالى قد خصّه بهذا العدل دون غيره من البشر، وأنَّه يمتلك المعرفة والعلم في الحكم، وأموره بين المتخاصمين، وإن هذا الحكم الذي يطلقه لا يجعل به شك، أو ريب، والشاعر قال هذه الأبيات المدحية بحق القاضي عندما حكم بينه وبين يهودي وقعت بينهما خصومة.

وقال يمدح كمال الدين أفندي قاضي حلب (المحبي، ٢٠٠٦، صفحة ٢٩٩): (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٨٠) [الكامل]

أشكو الزمان وليس يُقمع ظلمه عني سوى أقضى قضاة العسكرِ
أعني كمال الدين والدنيا الذي أحصاءُ فضل كمالهِ لم يحصرِ
من كمل الله العلا بوجوده وبجوده جود السحاب الممطرِ

إنَّ أغلب الشعراء أنما يقولون الشعر لغرض التكسب، والتقرب من الممدوح واستحسان رضاه، ولهذا فقد عبّر الشاعر عن عدل القاضي كمال الدين في هذه الأبيات، وأنه يشكو من ظلم الزمن، ولا يوقف ظلمه،إلا قاضي قضاة العسكر، وهو كمال الدين أفندي قاضي حلب، فمدح الشاعر عدل القاضي وجوده، وأن الله

تعالى أعطاه صفة العدل في الحكم، وأيضاً يبين في باقي أبيات القصيدة وهي تطول، كيف أبهر الخليفة في قضائه بالعدل بين الناس،وأنه قد جمع بين العلم والفضل، إذ رسم صورة مدحية غاية في الجمال.

وله في مدح الأمير محمود أمير طرابلس الشام (المحبي، ٢٠٠٦، صفحة ٣١٦) أبياتاً، منها قوله: [الخفيف] (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٩٤)

الأمـــير الأجـــل محمـــود مـــن لـو جـال فـرداً رأيـت منـه خميـسا
والـــشجاع الـــذي تهـــاب الـــضـ واري أن ترى بعضها لديـه جليـسا
والكـريم الـذي تـشح الـسواري وأياديـــه تـــستقبل الدخسيـــسا

فالكثير من الشعراء كانوا يعتمدون على الصورة التقليدية، لكن لكل شاعر قدرته على الصياغة بأسلوبه الخاص،وخبراته التي يكسبها من الحياة (اليافعي، ٢٠٠٨م، صفحة ١٧)،و إن لفظة (الأسد) في الغالب تعبّ عن الشجاعة والقوة، وعليه فقد شبّه شاعرنا الأمير بالأسد في صولاته وجولاته، وإن شجاعته تجعل كل من حوله يهابونه، ويكونون أمامه جالسين مطيعين لهيبته، ثم يصفه بالكرم والعطاء، وكيف تحبّه الناس لكرمه وتواضعه، وهذه الصورة المدحية التي رسمها هي للتقرب من الأمير وكسب عطاياه.

وقال في مدح الأمير موسى الشهير بإبن الحرفوش (المحبي، ٢٠٠٦، صفحة ٤٣٢) (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٠٠): الطويل

أقـول لحـر سـاءهُ الـدهر والنـوى وشـوش منـه الفكـر أي تـشويشِ
إذا استصرخ الأيام أغضت ولم تجب بنـاظر مكفـوف ومـسمع أطـروشِ

عليك بقصد الأروع الورع الذي يملك رق المجد من آل حرفوشِ
هو الأكرم الوضاح موسى أبو الندى أمير المعالي والمكارم والجيشِ

من عادت الشعراء جميعاً أن يجعلوا الممدوح ذا صفات يتفرد بها، ولا يمتلكها أحد غيره؛ أنما وضعت له لا غير، وهذا ما فعله شاعرنا مع الأمير، إذ حثَّ الشاعر كل حرٍّ جار عليه الزمان، واضطرب فكره، ولم يجد من يساعده عليه أن يقصد الأمير موسى من آل حرفوش؛لأنه الأكثر كرماً،وعطاًء بين الناس فصوّر كرم الأمير خير تصوير، وأيضاً أشار إلى شجاعة الأمير وبسالته، وكيف تخر الجبابرة من شجاعته، فكانت الألفاظ التي أختارها الشاعر تلائمه وتوضح صورة الكرم والشجاعة.

إذ يقول في مدح الأمير محمد بن سيفا أمير حلب (الزركلي، ٢٠٢٢، صفحة ٢٩٣) : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٠٦) [البسيط]

شجاع مطاع عادل باذل اللهي وفيّ سخيّ أريحيّ سميدع
إمام همام فاضل كامل النهي أمير خطير القدر أمجد أروع

فوصف الشاعر الأمير بالشجاعة والبسالة، وأنه عادل بين قومه ووفي وسخّي وسميدع _أي: سيدٌ شجاع وكريم وسخي_، وهو قائد وصاحب همة وشجاعة كالأسد وهو أمير كثير الرفعة، والشرف بين قومه، وكل من يراه يعجب بجماله وشجاعته فاختار الشاعر كلمة (سميدع و أروع)، ليختصر معاني الكرم والشجاعة كلها ويضعها في الأمير.

ب. المديح الديني

خلق الله الوجود فأحسن خلقه، وأنعم على البشر فأجزل نعمه، لذلك قامت الأديان كلها على مديحه وبيان نعمه، وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تبيّن مديح الله تعالى،والاعتراف بجبروته وقوته،وخيراته وفضله على المخلوقات (الدهان، ١٩٩٢، صفحة ٦٩)، قال تعالى: "خلق السموات بغير عمدٍ ترونها والقى في الأرض رواسي إن تميد بكم وبث فيها من كل دابةٍ وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم " (سورة لقمان آية ١٠)، وعليه يعد العامل الديني ركيزة أساسية في حياة الإنسان منذ القدم، وقد عبّر عنها بوسائل متنوعة منها الشعر، والشعر الديني مهمته الدفاع عن العقيدة الإسلامية، فهو شعر قيل في أغراض دينية محوره مديح الرسولﷺ، أو مدح بعض الأئمة (صلوات الله عليهم)، أو مدح بعض الشرائع الإسلامية، ويكون هذا النوع من الشعر مليئا بالعاطفة الدينية.

وكان هناك الكثير من الشعراء الذين رافقوا الرسولﷺ، وأفادوا من القرآن الكريم، وحياة الصحابة وآل البيت في شعرهم (التونجي، ١٩٩٩، صفحة ٥٥٦).

إنَّ أغلب الأشعار الدينية "لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص" (مبارك، ١٩٣٥م، صفحة ١٧)، وهذا يعني إن الشعر الديني كان صادراً عن قلوب صادقة ومخلصة، وتقل فيه العاطفة والكذب والمبالغة في وصف الأشياء، وإنَّ الشاعر الحسين بن أحمد الجزري كان شعره الديني قليلا،ومن ذلك قوله : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٣٥) [الخفيف]

لا تدعني فرداً الهي وحيداً وأغثني يا من بهِ يستغثُ
وأعنّي على زمانٍ كأن الحظّ في ليل همّه أضغثُ

وأجعل الصبرَ جنة لي فإن الدهر رام سهامه الأحدثُ

قـــد توســـلتُ بالـــشفيع الـــذي في البعث للناس مـن نـداه انبعـثُ
صـــلي يـــا ربنـــا عليـــه صـــلاة ضـعف مكـث الـسما لهـا أمكـاث

إنَّ أغلب الكتب المقدسة بيّنت معجزات الله تعالى، وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تبيّن قوة الله، وفضله على المخلوقات جميعاً (الدهان، ١٩٩٢، صفحة ٦٩)، لذا فإنَّ أغلب شعراء المديح أرادوا أن يبيّنوا فضل الله عز وجل على الخلق أجمع، لذا أخذوا يتغنون بنعم الله، ويمدحون أسمائه، لذا سار شاعرنا على نهج من سبقه من الشعراء في غرض المديح الديني، إذ بيّن الشاعر عظمة الله تعالى، وأنه وحده من تستغيث به الكائنات، وتطلب العون منه، وهذه صورة عن مديح عظمة الله تعالى، وسمو فضله على الناس، والشاعر يطلب من الله تعالى ويتوسل به أن يكون مكانه الجنة؛ لأنه صبر على كل ما مرّ به من أحداث، ثم يتحول بعد ذلك ليمدح الرسول صلى الله عليه وآله، ويبيّن منزلته عند الله تعالى، وأنَّه الشفيع للناس يوم القيامة، وكيف تتوسل به الناس للخلاص من العذاب، وصلِ يا ربنا على الرسول، واجعلها يا رب صلاة فيها تأني وتوفيق؛ لأن هذه الصلاة فيها تقرب من الله،ورسوله الكريم، وقد قَلَّ شعر المديح في صدر الإسلام؛ لانشغال الناس بالتعاليم الإسلامية وبلاغة القران الكريم (محمد س.١٩٩٢، صفحة ١٨).

وقال في آل البيت عليهم السلام (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٤٦): [مجزوء الرمل]

يـــا بنـــي الهـــادي الرســـول أنـــــتم غايـــــةُ ســـــؤلي
أنـــــتم في الحـــــشر ملجـــــأً لي وكهفـــــي ومقلتـــــي
لا أرى غـــــير حبـــــيكم عتـــــاداً لـــــرحيلي
ومـــــلاذاً يـــــوم لا يغنـــــى خليـــــلٌ عـــــن خليـــــل

وشـــــفيعاً غـــــيركم يـــــا آل طـــــــــــه والبتـــــــــــولِ
فـــــــــاليكم يلتجـــــــــي كـــــــل عزيـــــــز وذليـــــــل

إنَّ شعر مديح الرسولﷺ بدأ مع ظهور الإسلام، "وقد توقدت العاطفة الدينية أيام الحروب الصليبية وبدأ مديح الرسولﷺ، يأخذ طريقه إلى الشعر العربي بشكل جلي وواضح، وصار سمة من سمات هذا العصر، ومن أظهر الأغراض الشعرية" (رشيد، المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية، ١٩٨١م، صفحة ٤٣١)، وعليه أصبح مديح الرسول وآل البيت من الأغراض الشعرية المهمة، ففي هذه القصيدة عبر الشاعر عن مديح آل البيتعليهم السلام، وبيان منزلتهم عند الله تعالى، فيذكر الشاعر منزلة آل البيت بين الناس، وإن الله تعالى قد أختارهم، وفضلهم على الناس كافة، فهم جُعلوا للعالمين نوراً يهدي لمعرفة الله تعالى، وإن الرسولﷺ، هو الذي حمل للعالمين جميعاً معجزة القران الكريم، الذي فيه الموعظة،والحكم وما يحتاج إليه الناس، ويذكر الشاعر إن الرسول، وآل بيته هم الشفعاء والملجأ يوم الحشر، ويكون الفوز لمن أحبهم ووالآهم وسار على نهجهم، أستعمل الشاعر (يا) النداء مع آل النبي (يا بني الهادي و يا آل طه)، وهذا يدل على إنّه يطلب الشفاعة من آل بيت النبي ككل ولا يخص أحداً، ثم يختم مقطوعته بالصلوات على آل النبي.

وقال أيضاً : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٢٢٦) [السريع]

أصـبر عـلى الـضر و لا تمـس عـن شـــكرك فـــضل الله بـــاللاهي
وأنتظـــر الرحمـــة مـــن قولـــه لا تقنطـــوا مـــن رحمـــة الله
صـــبرك قـــد يعييـــك أولاه لكنـــه يرضـــيك عقبـــاه

قـــرب خطـــب بعـــدك بعـــدما أرتجـــــت أبوابـــــه فرجـــــه الله

يذكر الشاعر في هذه المقطوعة فضل الله، ويبين قدرته ومنّه على الناس جميعاً، وينبغي على الناس أن لا تغفل عن شكر الله باللهو والنسيان، وأن رحمة الله قريبة فعلينا أن ننتظرها دوماً، و لا نقنط عنها، وإن هذا المقطع من البيت ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، مقتبس من آية قرآنية هي: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمرد آية ٥٣)، وبيّن الشاعر إن الصبر على الشيء، وشكر الله تعالى يفتح أبواب الفرج من الله على الناس.

٣. الوصف

الوصف في اللغة :"من وصف الشيء له وعليه وصفاً وصفة : حلاَّه" (منظور، ١٣٣٠ه، صفحة ١٤٨٤٩). أما اصطلاحاً ف" هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات ولما كان وصف الشعراء يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني، كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني " (جعفر، ١٣٠٢هـ)، فالوصف يصور عواطف الشاعر وكل ما يمر به، وما يؤثر فيه من ظواهر طبيعية صامتة، أو متحركة، وهو غرض يحتاج إلى ذوق فني؛ ليكشف عن عناصر الجمال التي يتبناها الشاعر، وهو عمود الشعر، وعدَّ فنون الشعر كلها في باب الوصف؛ لأن الشاعر يصف حالة شعورية مر بها و حركة مشاعره، فعندما يتغزل في محبوبته يصف الحب ولوعته، وعندما يرثي فقيداً يصف حالة الحزن التي يعيشها وهكذا (قناوي، ١٩٤٩م، صفحة ٤٢)، وعليه نستطيع القول بأن الوصف، هو التعبير عن الحالة الشعورية التي يمر بها الشاعر سواء أكانت حزناً أم فرحاً أم عتاباً...، ووصف

الأجواء المعبرة عن كل حالة، ومن ذلك قول الحسين بن الجزري الحموي وهو يصف النرجس : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٣٤) [الكامل]

رام الحبيب تغزلا في نرجس حَّياً به فأجتبه عما طلب
قضبَ الزمرد فوقهنَ أنامل من فضة ضمت على قدح ذهب

إن الشعراء استغلوا جمال الطبيعة الخلاب في شعر الوصف، وأخذوا يصورون تشبيهات كثيرة من الطبيعة، وقد حظيت زهرة النرجس بمنزلة خاصة في الوصف؛ لجمالها، وعطرها (قناوي، ١٩٤٩م، صفحة ٥٣)، فنلحظ وصف الشاعر لورد النرجس وجماله، فشبهه بالحبيب وتغزل به، ثم أخذ يشبه النرجس بالزمرد المطرز بالفضة في كأس من ذهب، وهو وصف رائع بين فيه جمال النرجس ووصف تفاصيله كافة.

وقال في فصل الربيع : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٦٦) [الخفيف]

قابلتنا أيدي الربيع بوجه حسن فيه للمحاسن شاهدُ
ولنعم الزمان منه منحنا فضل فصل الربيع لو كان خالدُ

إن أغلب الشعراء عند وصفهم للطبيعة "يصورون الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم، وذات الوان تكشف عن الجمال" (قناوي، ١٩٤٩م، صفحة ٤٢)، لذا فقد شبه الشاعر فصل الربيع بالوجه الحسن المشرق، وجمال قدومه،وكيف تزهر فيه الأشجار والحشائش، وتتفتح الزهور، ويعم الخضار على وجه الأرض بفصل الربيع، وأنه يتمنى لو إن فصل الربيع يبقى طوال السنة.

وقال في وصف النارنج (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٨٨): [مجزوء الرجز]

نارنجيـــــــــة بعثتهـــــــــا مـــــــع الهديـــــــة معمـــــــرِ
كنهـــــــدها حـــــــين يبـــــــدو في ثـــــــوب لاذ معـــــــصفر

أعجب الشاعر بجمال لون النارنج، وأخذ يتغنى به ويصفه، فشبه لونه بالثوب المعصفر، أي الثوب المصبوغ باللون الأحمر، من قبل نبات العصفر وإن لونه يكون ظاهرا ملفتا للنظر يجذب الانتباه إليه، وإن أغلب الشعراء يبالغون في وصف الشيء؛ لإعطاء جمالية له، إظهار البراعة في التعبير.

وقال في وصف القهوة : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٨٩) [البسيط]

يا لائمـي عـلى شرب الـدجى أبـداً لقهـوةِ الـبنِ لـو بلغتهـا خـبري
فقـد سـهرتُ ومـن أدنـى منافعهـا أعانة العاشـق المـضنى عـلى الـسهرِ

نلحظ إن الوصف يدخل في كل غرض من أغراض الشعر، فالمديح وصف الخصال الحميدة، والرثاء وصف محاسن الميت، والهجاء وصف سوءات المهجوّ وهكذا (قناوي، ١٩٤٩م، صفحة ٤٣)، لذا فقد عبر الشاعر عن وصفه للقهوة ولونها الأسود وطعمها، ثم وصف منافعها،ويقول فيها إنَّ من أقل منافعها،إنها تعين العاشق على السهر وليس أي عاشق، أنما العاشق المضنى، أي العاشق المتعب أو المريض.

وقال يصف بعض شعراء عصره (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٠٣): [مجزوء الكامل]

يـــا مـــن يظـــن بنظمـــه للـــشعر فـــاق الأحـــوص
شـــعر تعقـــد نظمـــه فكأنـــه شـــعر الخـــص

تكلم عن الشعراء المتكبرين الذين يظنون إن شعرهم لا يضاهيه أحد، وإنه أفضل الشعر، فقد أراد الشاعر إن يعطي صورة وكأنّه يهجو بها هولاء الشعراء، فقد وصفهم بأنهم ذو شعر منقطع لا يوجد فيه روح الشعر، وجماله كالغزل، والوصف، والمديح، أي أنه مجرد نظم لا روح فيه.

وقال في وصفِ ساقٍ مليح: (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٨٢) [الخفيف]

نتفـداك سـاقياً قـد كـساك الحـسن من فرقك المضيء لسانكَ
تشرق الشمس من يديك ومن فيك الثريا والبدر من أطوافك

إن من عادة كل شاعر إذا أراد أن يصف الجمال، لابد أن يدخل مظاهر الطبيعة في وصفه؛ لأن الطبيعة بمظاهرها الخلابة تبدي جمالية على الصورة الوصفية، وهذا ما فعله شاعرنا في وصف جمال هذا الساقي، وحسنه، فأختار مجموعة أوصاف ووصفه بها، فشبهه بالشمس المشرقة تارة وبالثريا والبدر تارة اخرى.

وقال في وصف خنجر الأمير : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٨٢) [الطويل]

تملكتنـي يـا نجـل سـيفاء خنجـراً يـرقُ سـنا لكـن يُـروعُ عِـداكا
لأني إذاجُـرتَ لحُـت لنـاظرٍ هـلالاً وإن صـفحتَ كنـت هلاكـاً

ارتبط وصف السلاح بعدد من القيم الأخلاقية لدى العرب، فهو أحد وسائل القتال للبقاء على قيد الحياة، وللدفاع عن الوطن والمال، فالسلاح يعطي لحامله طاقة للرد على من يتطاول عليه، وقد كان السيف السلاح الأوحد الذي يحرص العربي عليه ويحمله، وقد أعطى الشعراء عدة أسماء للسيف عند وصفه منها (الصارم، المهند، القاطع، الباتر،والأبيض)،وعليه فقد وصف الشاعر خنجر الأمير، على الرغم من أنَّه سلاح ثانوي بعد السيف في الأهمية، فقال: إنه يُعجب قومه ويبرّ ون لرؤيته، لكنه يكون للأعداء رعب وخوف، وإنَّ هذا الخنجر يشد أنتباه من نظر إليه؛ لشدة جماله،ولمعانه وكأنَّه هلال، لكنه يتحول إلى هلاك إذ أُستعمل في الحرب أو القتال.

وقال في وصف نارٍ مشتعلة في أعلى جبل عكار،وهو بطلب من الأمير: (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٤٧) [البسيط]

كـأن نـارَكَ يـا مـولاي قلبٌ شُـج بـهِ الـصبابة تعلـو حـين يـشتعل

تمثل النار لدى العربي في أغلب الأحيان رمزا الكرم؛ لأن من عادات العرب إشعال النار ليلاً لتكون دليلا لكل مسافر، فأعطى الشاعر في هذا البيت صورة تشبيهية للنار المشتعلة كأنّها قلب العاشق الذي يتلوه من شدة العشق، والشوق، إذ وصف تهيج النار واشتعالها بشدة تهيج الشوق في القلب.

٤. الحنين والشكوى

الحنين: هو صوت الطرب سواء أكان ينم ذلك عن حزن أم فرح، والحنين: الشوق وتوقان النفس، وحت الأُلُ : نزعت إلى أوطانها، أو أولادها، وتحننت الناقة على ولدها: تعَّطفت (منظور، ١٣٣٠ه، صفحة ١٠٢٩).

أما اصطلاحاً: فهو مضمون أدبي طغى على الشعراء الذين ابتعدوا عن أوطانهم، وأخذوا يتغنون بها وهم بعيدين عنها، وكان شعرهم رقيقاً مرهفاً ووجدانياً صادقاً، وقد ظهر شعر الحنين لدى شعراء المهجر، إذ كانوا يحنون إلى أرضهم في الشام،ولبنان (التونجي، ١٩٩٩، صفحة ٣٨٥)، وعليه يمكن القول إن شعر الحنين يكون ذا عواطف صادقة نابعة من القلب؛ لأن الشاعر يكتبها من دون مصلحة أو منافع، ولقد كتب الشاعر حسين بن أحمد الجزري في الحنين من ذلك قوله : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ٦٧) (الطويل)

لقد طال ما بيني وبين عشيرتي وطال اغترابي عنهم وتباعدي
وإن الليالي لا تنام عن فراق ذوي القربى وقرب الأباعدِ

فمنذ الجاهلية بدأت تتضح ملامح الحنين إلى الوطن، والديار، والأطلال؛ لما فيها من الحب والخير، والصفاء، فالشاعر كلما أبتعد عن دياره أخذه الحنين، والشوق إليها (الجبوري، ٢٠٠٨م، صفحة ٣١)، وبما إن شاعرنا كان من المغتربين عن ديارهم،فقد أخذه الشوق والحنين إلى الديار، فكتب هذه الأبيات ليبين مدى اشتياقه إلى عشيرته، وأهله، وإنه قد طال بعده وفراقه عنهم، وإن هذا البعد جعله يسهر الليالي، ولا ينام له جفن.

وقال متشوقاً إلى نواحي عكار وأيامه مع أصدقائه: (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٤٧)[مجزوء الكامل]

عطر مهبكِ يا قبول إذا مررت على قبولا
وأجرى أحاديث القبول إذا جررت بها ذيولا
واذكر لها عهدي القديم بمن عهدت بها نزولا

مـــا خلـــت بعـــد خلوهـــا ممـــن خلـــوت بهـــم خلـــيلا

إن كل شخص ولاسيما "الشاعر حين يبتعد عن أهله ووطنه، يشعر أنه غريب لا يستطيع أن يتلاءم مع البيئة التي نزلها والناس حوله غير الناس، فهو ذليل مهان وإن لم يذله أحد" (الجبوري، ٢٠٠٨م، صفحة ٣٣)، لهذا يكثر حنينه للوطن،والاشتياق للعودة اليه، ولهذا كتب الحسين بن أحمد الجزري أبياتاً يحن فيها إلى قرية قبول التي هي، أحد قرى عكار، فيشتاق إلى عطرها، ونسيم هوائها، ويتذكر مسامرات الأصدقاء،والخلان، وأحاديثهم هناك وقضائهم الوقت الجميل في أيام الصبا، ويبيّن ألم الفراق،ولوعة الحنين بعد أن رحل عنها، ولم يعد يرى الأصدقاء، والخلان.

أما الشكوى لغةً: من شكا يشكو إذا أخبرتَ عن شخص بسوء فعله بك (منظور، ١٣٣٠ه، صفحة ٢٣١٣).

اصطلاحاً: هو التوجع من شيء تنوء به النفس، ومنه المرض أو الموت أو الدهر أو الحرب أو الخيانة والقدر والظلم والكذب... وغير ذلك من المظاهر التي قد تعرض للشخص فتكدر عليه صفو حياته، ويشعر إزاءها بالهموم وشدة اليأس (النهشري، ١٩٩٠م، صفحة ٤)، أي أن يعبر الشاعر عن وجع قد أصابه من شخص ما، أو من الزمان،ونجد شاعرنا قد أخذ يعبّ عن هذا الوجع في شعره، وعليه فيكون شعر الشكوى ذا عواطف صادقة،ونابعة من القلب؛لأن الشاعر يكون فيها متوجعاً،ويريد إخراج هذا الألم فيكون الشعر أفضل طريقة ليخرجه، ومن ذلك قول شاعرنا شاكيا : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٠١) [البسيط]

لا أشتكي الحب تصميني مصائبهُ ولي عن اللوم فيه أذن اطرشَ

فلستُ أول من القاه ناظره في صبوة شوشته أ تشوشيَ

ويبدو إن الشكوى لدى الشاعر منذ الجاهلية، لا تتعدى الشكوى من الشيخوخة، وهجر الحبيبة، والغربة، ولهذا عبر الشاعر عن شكواه من الحب، وما يفعله بالشخص من سهر، وشوق وحرقة قلب، ولهذا أراد الشاعر أن يبتعد عنه فأعطه الأذن الصماء، ولم يرد أن يدخل في شباكه، فيجعله في تشويش دائم في حياته كلها.

وفي ذلك يقول شاكياً من الزمان وظلمه (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٦٢): [الخفيف]

غـــير بـــدع إذا ظُلمـــتَ بـــدهرٍ رزق الغمـــر فيـــه حظـــاً عظـــيما
فـــالهواء الـــصحيح يـــدعى علـــيلا والمـــصاب اللـــديغ يـــسمى ســـليما

إذ نلحظ في العصور كافة قد كثرت الشكوى من الزمان؛ لأنه يرفع الجهلاء ويضع الفضلاء، فقد كثرت الشكوى من الزمان في القرن الثاني والثالث؛ نتيجة اتساع الفقر والبؤس في المجتمعات، ولهذا عبر الكثير من الشعراء عن شكوى الاوضاع السياسية،والاجتماعية. (الزهيري، ١٩٤٩م، صفحة ٢٤٣) إن شاعرنا لم يختلف عن غيره من الشعراء فقد شكى من الزمان وظلمه، وما يفعله بالشخص، فالدهر دائماً يوقعنا في مصائب جديدة، فالزمان يجعل الصحيح عليلا، والمصاب سليما.

ويقول أيضاً : (الطباخ، ١٩٢٩م، صفحة ١٦٢) [الخفيف]

مـــا ســـئمت الزمـــان إلا لحـــر مـــان كـــريم فيـــه وحـــظ لئـــيم
وتـــراءى اللئـــيم أقـــبح في العيـــ ـــنين مـــرأى مـــن افتقـــار الكـــريم

إذ تتخذ الشكوى ألواناً شتى، وإن أقوى هذه الألوان هي الشكوى من الزمن، فيبدأ الشاعر بالتعبير عن الظلم والجور الذي يتعرض له، فقد عبر شاعرنا عن مللله، وضجره من الزمان؛ لأنه لا يكون كريما معه؛ إلاّ في الحرمان من الأشياء، ويكون حظه في هذا الزمان حظ اللئيم الذي يكون منظره قبيحا للناظر وأقبح من فقر الكريم.

الخلاصة

كان الشاعر تقليدياً في أغراضه، ولا سيما في المديح، إذ لم يخرج عن قالب العرب في وصف خصال الممدوح وكماله، إلاّ أن أفكاره كانت معبّ ة،وتعابيره مستوحاة من البيئة التي يعيشها، وقد زينت أبياته الشعرية بتكرار الحروف والكلمات، وأيضاً بالجناس والأساليب البلاغية، واللغة المعبرة وهذا كله أظهر جمالية الموسيقى في شعره، وإنْ كثرت أوصافه للطبيعة كان نتيجة انتشار هذا الوصف في عصره، وكثرت أشعار الحنين إلى دياره، وأيضاً كان يشكو من الزمان وما يفعله به في الغربة، وعليه نستطيع القول أن الشاعر كان حسن في اختيار الصور التي تلاءم موضوعاته، وكانت أغلب قصائده ذات معاني معبرة مليئة بالإحساس.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. إبراهيم، هلال. (٢٠١٢م). التصوير البياني في شعر المتنبي. مصر: مكتبة وهبة.

٢. أبو حاقة، أحمد. (١٩٦٢). الفنون الأدبية عند العرب. بيروت: دار الشروق الجديد.

٣. بن جعفر، أبي فرج قدامة. (١٣٠٢هـ). نقد الشعر. قسطنطينية: مطبعة الجوائب.

٤. بن منظور، ابي الفضل جمال الدين محمد بن كرم. (١٣٣٠هـ). لسان العرب. مصر: دار المعارف.

٥. التونجي، محمد. (١٩٩٩). المعجم المفصل في الأدب. بيروت لبنان: دار الكتب العلمية.

٦. الحميري، عبد الواسع. (١٩٩٩). الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية. اليمن: المؤسسة الجامعية للدراسات.

٧. الدهان، سامي. (١٩٩٢). فنون الأدب العربي، المديح. القاهرة: دار المعارف.

٨. رشيد، ناظم. (١٩٨١م). المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية. بغداد: دار آفاق عربية.

٩. رشيد، ناظم. (١٩٨٩م). الأدب العربي في العصر العباسي. العراق: دار المتب للطباعة والنشر.

١٠. الزركلي، خير الدين. (٢٠٢٢). الأعلام. بيروت لبنان: دار العلم للملايين.

١١. الزهيري، محمد غناوي. (١٩٤٩م). الأدب في ظل بني بوية. مصر: مطبعة الأمانة.

١٢. الطباخ، محمد راغب. (١٩٢٩م). العقود الدرية في الدواوين الحلبية. حلب: مطبعة الحلبي العلمية.

١٣. عبد النور، جبور. (١٩٧٩). المعجم الأدبي. لبنان: دار العلم للملايين.

١٤. فهمي، مصطفى. (١٩٧٨م). التكيف النفسي. مصر: دار مصر للطباعة.

١٥. قناوي، عبد العظيم علي. (١٩٤٩م). الوصف في الشعر العربي. سوريا: مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده.

١٦. مبارك، زكي. (١٩٣٥م). المدائح النبوية في الأدب العربي. مصر: دار المحجة البيضاء.

١٧. محمد أمين بن فضل الله المحبي. (٢٠٠٦). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، جزء ٢. لبنان: المطبعة الوهبية.

١٨. محمد، سراج الدين. (١٩٩٢). موسوعة المبدعون، المديح في الشعر العربي. لبنان: دار الراتب الجامعية.

١٩. محمد، الولي. (١٩٩٠). الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي. فلسطين: المركز الثقافي العربي.

٢٠. نصار، نوفل. (٢٠٠٧). المعجم الأدبي. عمان: دار ورد الأردنية.

٢١. النهشري، ظافر عبد الله. (١٩٩٠م). الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري (أطروحة دكتوراه). السعودية: جامعة أم القرى.

٢٢. وهبة، مجدي. (١٩٨٤). معجم المصطلحات العربية في اللغه والأدب (المجلد طبعة ٢). لبنان: مكتبة لبنان.

٢٣. اليافعي، نعيم. (٢٠٠٨م). تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث. سوريا: صفحات للدراسات والنشر.

٢٤. يحيى وهيب الجبوري. (٢٠٠٨م). الحنين والغربة في الشعر العربي. عمان: دار مجدلاوي للنشر.